أسباب وقوع الإشكال في القرآن الكريم (دراسة وصفية)

(A Descriptive Study of the Causes of *ishkāl* "dubiosity" in the Qur'ān)

هارون الرشيد [*]

Abstract

Sometime it appears to a researcher that if there is a sort of contradiction and incompatibility between some verses of the Qur'an, while it has been categorically declared by Allah in the Qur'an that: "Had it been from other than Allah, they would surely have found therein many a contradiction". (*Al-Nisā'*: 82) Further Qur'an was revealed in different styles of rhetorical expressions prevalent in Arabic literature at that time, such as: metaphor, paronomasia, pun and metonymy. Whenever, the companions would come across any type of ambiguity, they would directly ask the Prophet (Peace be upon him) for clarification. But with the passage of time and because of entry of loanwords and ignorance from rhetorical sciences of Arabic, the circle of ambiguity expanded. This article narrates those reasons which lead to any type of ambiguity in correct understanding of some verses. All this has been illustrated with the examples and in the light of opinions of exegetes, scholars of *ḥadīth*, lexicologists and jurists. Some basic principles pertaining to the removal of contradiction are also elaborated at the end.

تمهيد:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا والسلام علي النبي الأمي الذي أوتي جوامع الكلم ومصابيح الدجى وعلى آله وأصحابه ومن والاه. أما بعد:

فقد يعرض أحيانا لقارئ كتاب الله الكريم أن بعض الآيات فيها نوع من التعارض أو عدم التوافق مع آيات أخر؛ فيشكل عليه الأمر – ولا سيما إذا كان زاده من علم التفسير يسيرا – وربما أورث ذلك شكا في نفسه فيقف حائرا في ذلك ومتسائلا عن وجه التوفيق بين ما بدا له من تعارض. والحادثة التالية تلقي مزيدا من الضوء على صورة هذه المشكلة:

[*] الأستاذ المساعد، قسم التفسير وعلوم القرآن ، كلية الدراسات الإسلامية (أصول الدين) الجامعة الإسلامية العالمية،إسلام آباد

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما – وأصل الحديث فى صحيح البخاري – أن رجلا جاءه فقال: رأيت أشياء تختلف علي من القرآن ، فقال ابن عباس: ما هو؟ أشك؟ قال: ليس بشك، ولكنه اختلاف، قال: هات ما اختلف عليك من ذلك، قال: أسمع الله يقول: ''ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين''[1] وقال: ''ولا يكتمون الله حديثا''[2] فقد كتموا. وذكر له أشياء أخرى اختلفت عليه ، فأجاب ابن عباس رضي الله عنهما عن إشكالات السائل ثم قال له: فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرت لك، وإن الله لم ينزل شيأ إلا وقد أصاب الذي أراد ولكن أكثر الناس لا يعلمون. [3]

فمن المعلوم أن آيات القرآن لا تعارض بينها البتة، وأن ما يبدو فيها من تعارض واختلاف إنما هو تعارض واختلاف في أذهاننا فحسب، أما في حقيقة الأمر فليس هناك تعارض هناك ولا اختلاف؛ إذ كيف يكون ذلك، ومصدر الكتاب واحد وهو رب العالمين!! ''ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا''[4] فليس من المعقول عقلا ولا من المقبول شرعا أن يكون فيه اختلاف أو تعارض.

ويضاف إلى هذا أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب وموافقا لأساليبهم في الخطاب ومنهاجهم في التعبير عن المراد، إلا أنه عندما نزل على الصحابة رضوان الله عليهم – وهم أفصح العرب –كانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، أما دقائقه فما كانت تتجلى لهم وتظهر إلا بعد البحث والنظر مع سؤالهم النبي صلى الله عليه وسلم في الغالب. فلما تباعد الزمن عن عهد نزول القرآن وبعد الناس عن العربية الفصيحة بسبب ما تكاثرت الألفاظ الدخيلة وقصرت المدارك عن معرفة أسرار اللغة وأحكامها اتسع نطاق ما استغلق فهمه، حيث إن الله عز وجل لم يشأ أن يجعل كتابه على درجة واحدة في البيان والظهور، بل اقتضت حكمته أن يجعل في كتابه ما تتفاوت فيه الأفهام، كما بين ذلك ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: '' التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ''.[5]

فكشفا لحقائق الأمور، وإزالة لما يرى من تعارض واختلاف، فقد قام العلماء بوضع علم خاص، أدرجوه ضمن علوم القرآن، وأسموه علم (مشكل القرآن)، والغاية من هذا العلم إزالة ما يوهم التعارض والاختلاف بين آيات الكتاب العزيز.

وبعد إمعان النظر في جهود هؤلاء العلماء يمكننا أن نجمل الأسباب المؤدية إلي الإشكال في **القرآن** الكريم فيما يلي:

أسباب الإشكال

السبب الأول: وقوع المخبر به على أحوال مختلفة ومنه:

قوله تعالى في خلق آدم عليه السلام إنه: ''من تراب''[6] ومرة: ''من حمإ مسنون''[7] ومرة: ''من طين لازب''[8] ومرة: ''من صلصال كالفخار'' [9]

فهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها في أحوال مختلفة ؛ لأن الصلصال غير الحمأ ، والحمأ غير التراب ، إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر واحد وهو التراب ، ومن التراب تدرجت هذه الأحوال كما قال الشوكاني: ''إن التراب لما بل صار طينا فلما أنتن صار حمأ مسنونا فلما يبس صار صلصالا ''، فكل آية من هذه الآيات ذكرت طورا من أطوار خلقه، فإذا اجتمعت بعضها إلى بعض أعطتنا صورة متكاملة عن مراحل وأطوار خلقه عليه الصلاة والسلام. [10]

السبب الثاني: اختلاف الموضوع ومنه:

قوله تعالى: ''وقفوهم إنهم مسئولون''[11]، وقوله تعالى: ''فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين''[12]، وقوله تعالى: ''فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون''[13]، مع قوله تعالى: ''فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جانّ''[14]، وقوله تعالى: ''ولا يكلمهم الله يوم القيامة''[15].

فتحمل الآيات الأولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل ، والثانية على ما يستلزم الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه. وقد ذكر المفسرون وجها آخر وهو أن المثبت سؤال توبيخ وتبكيت، والمنفي سؤال المعذرة[16].

السبب الثالث: الاختلاف في جهتي الفعل ومنه:

قوله تعالى: ''وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى''[17]، حيث نفى الرمى عن الرسول صلي الله عليه وسلم وفي الوقت نفسه أثبته له.

والجواب: أن الرمي عبارة عن أمرين: أحدهما القبض والإرسال، وهما بفعل الرامي. وثانيهما التوصيل والإصابة، وهما بفعل الله عز وجل. فأضافه إلي النبي صلى الله عليه وسلم باعتبار الكسب والمباشرة بالإرسال، ونفاه عنه باعتبار التأثير بالتوصيل إليهم.

قال الزمخشري:

'' يعنى أنّ الرمية التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمى البشر ، ولكنها كانت رمية اللّه حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، فأثبت الرمية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأنّ صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه لأنّ أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل اللّه عزّ وجلّ''. [18]

وقال الرازي:

'' يعني أن القبضة من الحصباء التي رميتها ، فأنت ما رميتها في الحقيقة ، لأن رميك لا يبلغ أثره إلا ما يبلغه رمي سائر البشر ، ولكن الله رماها حيث نفذ أجزاء ذلك التراب وأوصلها إلي عيونهم ، فصورة الرمية صدرت من الرسول صلي الله عليه وسلم وأثرها إنما صدر من الله'' [19]

السبب الرابع: الاختلاف في الحقيقة والمجاز ومنه:

قوله تعالى:''وترى الناس سكارى وما هم بسكارى''[20]حيث وصفهم بأنهم سكارى ، وفي الوقت نفسه نفى عنهم السكر.

فأجاب عنه المفسرون بأن المراد: وترى الناس سكارى بالإضافة إلى أهوال القيامة مجازا ، وما هم بسكارى بالإضافة إلى الخمر حقيقة.

قال الزمخشري:

'' والمعنى : وتراهم سكارى على التشبيه ، وما هم بسكارى على التحقيق ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه . وقيل : وتراهم سكارى من الخوف ، وما هم بسكارى من الشراب '' . [21]

وقال ابن عاشور :

''ووصف الناس بذلك (سكاري) على طريقة التشبيه البليغ ، وقوله بعده'' وما هم بسكارى '' قرينة على قصد التشبيه'' [22]

السبب الخامس: الاختلاف من وجهين واعتبارين ومنه:

1- قوله تعالى:

''الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله''[23] مع قوله تعالى: ''إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم''[24]، فقد يظن أن الوجل خلاف الطمأنينة ، فأجاب عنه الإمام الرازي حيث قال: '' قال ابن عباس: يريد إذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت. فإن قيل: أليس أنه تعالى قال: إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والوجل ضد الاطمئنان ، فكيف وصفهم ههنا بالاطمئنان؟ والجواب: أنهم إذا ذكروا العقوبات ولم يأمنوا من أن يقدموا على المعاصي فهناك وصفهم بالوجل ، وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة ، سكنت قلوبهم إلى ذلك، وأحد الأمرين لا ينافي الآخر ؛ لأن الوجل هو بذكر العقاب والطمأنينة بذكر الثواب''.

ثم ذكر وجها آخر في الجواب فقال:

''حصلت في قلوبهم الطمأنينة في أن الله تعالى صادق في وعده ووعيده ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق في كل ما أخبر عنه ، إلا أنه حصل الوجل والخوف في قلوبهم أنهم هل أتوا بالطاعة الموجبة للثواب أم لا؟ وهل احترزوا عن المعصية الموجبة للعقاب أم لا؟''[25]

2- قوله تعالى:

''هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات''[26]، وفي آية أخرى: ''والأرض بعد ذلك دحاها''[27]، ففي الآية الأولى خلق الأرض قبل السماء ، وفي الثانية خلق السماء قبل الأرض.

فأجيب عنه بأنه لا تنافي بينهما؛ لأن الدحو ليس من الخلق ، وإنما هو البسط ، والأرض خلقت قبل السماء كما دلت الآية الأولى ، ثم خلقت السماء ، وبعد ذلك دحيت الأرض ، وبذلك تتفق معاني الآيات.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحا الأرض ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله تعالى:''دحاها'' [28]

وقال السمرقندي: " فإن قيل: قد قال في آية أخري '' .. والأرض بعد ذلك دحاها '' فذكر في تلك الآية أن الأرض خلقت بعد السماء ، وذكر في هذه الآية (آية البقرة) أن الأرض خلقت قبل

السماء. الجواب عن هذا أن يقال : خلق الأرض قبل السماء وهي ربوة حمراء في موضع الكعبة ، فلما خلق السماء بسط الأرض بعد خلق السماء فذلك قوله تعالى : '' والأرض بعد ذلك دحاها '' أي بسطها.[29]

السبب السادس: اختلاف الحال ومنه:

قوله تعالى:

''تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة''[30]، مع قوله تعالى:
''ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون''[31].

أجيب عنه بأنه باعتبار حال المؤمن والكافر ، بدليل قوله تعالى:''وكان يوما على الكافرين عسيرا'' [32]

قال ابن عطية:

'' ويوم القيامة مقداره ألف سنة مـن عدنا وهو على الكفار قدر خمسين ألف سنة لهوله وشنعته ''[33]

السبب السابع: اختلاف مرجع الضمير:

وذلك مثل قوله تعالى:''وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون''[34]مع قوله تعالى: ''ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون''[35]حيث وصف في الأولي المضاف إليه بلفظ'' الذي '' ووصف في الثانية المضاف إليه بلفظ '' التي ''.

فأجاب عنه المفسرون بجوابين:

الأول: قال أبو حيان في تفسير آية سبأ: " وقيل هنا '' التي كنتم بها تكذبون '' ، وفي السجدة: ''الذي كنتم به تكذبون'' لأنهم هنا لم يكونوا ملتبسين بالعذاب ، بل ذلك أول ما رأوا النار ، إذ جاء عقيب الحشر ، فوصفت لهم النار بأنها هي التي كنتم تكذبون بها.

وأما الذي في السجدة ، فهم ملابسو العذاب ، مترددون فيه لقوله تعالى: ''كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها '' فوصف لهم العذاب الذي هم مباشروه ، وهو العذاب المؤبد الذي أنكروه. [36]

الثاني: قال الآلوسي في تفسير آية السجدة: " إن الله سبحانه وتعالى قال ههنا: '' ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون '' وقال سبحانه في آية أخري: '' عذاب النار التي كنتم بها تكذبون'' فذكر

جل وعلا ههنا وأنث سبحانه هناك ، والسر في ذلك أن النار ههنا وقعت موقع الضمير (بدليل قوله تعالى: وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا)

والضمير لا يوصف فأجرى الوصف على العذاب المضاف إليها وهو مذكر ، وفي تلك الآية لم يجر ذكر النار في سياقها فلم تقع النار موقع الضمير فأجرى الوصف عليها وهي مؤنثة دون العذاب''.[37]

السبب الثامن: اختلاف التنكير والتعريف:

ومنه قوله تعالى: ''رب اجعل هذا بلدا آمنا''[38] بتنكير كلمة: '' بلدا '' ، وقوله تعالى: ''رب اجعل هذا البلد آمنا''[39] بتعريفها.

فأجيب عنه بأنه في الدعاء الأول كان مكانا قفرا ، فطلب من الله أن يجعله بلدا آمنا ، فكان المدعو به البلدية مع الأمن ، وفي الدعاء الثاني كان بلدا غير آمن فطلب له الأمن.

قال الزمخشري:

> '' فإن قلت أي فرق بين قوله: [اجعل هذا بلدا آمنا] وبين قوله: [اجعل هذا البلد آمنا] ؟ قلت: قد سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون ، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن ، كأنه قال: هو بلد مخوف فاجعله آمنا ''. [40]

وحقق هذا الآلوسي فقال:

> '' إنك إذا قلت: اجعل هذا خاتما حسنا فقد أشرت إلى المادة طالبا أن يسبك منها خاتم حسن ، وإذا قلت: اجعل هذا الخاتم حسنا فقد قصدت الحسن دون الخاتمية ؛ وذلك لأن محط الفائدة هو المفعول الثاني لأنه بمنزلة الخبر ، وإلى هذا يرجع ما قيل في الفرق أن في الأول سؤال أمرين: البلدية والأمن ، وفي الثاني سؤال أمر واحد وهو الأمن ''. [41]

السبب التاسع: تعارض العمومين:

وذلك كقوله تعالى: ''وأن تجمعوا بين الأختين''[42] مع قوله تعالى: ''والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين''[43] فالآية الأولى عامة في كل الأخوات فتشمل الأختين المملوكتين كما أنها تشمل الأختين الحرتين ، والثانية تعم كل ما تملك اليمين ، ومن ذلك الأختان المملوكتان.

إلا أن عموم الآية الأولى يترجح على عموم الآية الثانية بمرجحات عدة وهي: السنة وقول عامة الصحابة والقياس.

أما السنة فما روي عن رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه قال: '' من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجمعن ماءه في رحم أختين '' [44]

وأما قول عامة الصحابة فقد روي عن عمر وعلي وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم أنهم قالوا لا يجوز الجمع بين الأختين سواء كانتا حرتين أو مملوكتين. [45]

روي أن رجلا سأل عثمان بن عفان عن الأختين من ملك اليمين هل يجمع بينهما ؟ فقال عثمان: أحلتهما آية وحرمتهما آية فأما أنا فلا أحب أن أصنع ذلك ، قال: فخرج من عنده فلقي رجلا من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم فسأله عن ذلك ، فقال لو كان لي من الأمر شيء ثم وجدت أحدا فعل ذلك لجعلته نكالا. قال ابن شهاب : أراه علي بن أبي طالب. [46]

وأما القياس فهو أن الجمع بين الأختين يفضي إلى قطيعة الرحم ؛ لأن العداوة بين الضرتين ظاهرة ، وأنها تفضي إلى قطيعة الرحم ، وقطيعة الرحم حرام فكذا المفضي . وهذا المعنى تشترك فيه أختان مملوكتان كما تشترك فيه أختان حرتان ، فلا وجه للفرق بينهما . [47]

السبب العاشر: تعارض القراءتين في آية واحدة:

وذلك كقوله تعالى: ''وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم''[48] فقد قرأت '' وأرجلكم '' بالنصب والجر. فجمع بينها بحمل قراءة الجر على مسح الخفين وحمل قراءة النصب على غسل الرجلين إذا لم يكن لابسا لهما.

قال ابن كثير مبينا توجيه القراءتين:

> '' وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض إما على المجاورة وتناسب الكلام ، كما في قول العرب: ''جحر ضب خرب '' وكقوله تعالى: ''عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق''[49] وهذا شائع ذائع ، في لغة العرب شائع. ومنهم من قال: هي محمولة علي مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان ، قاله أبو عبدالله الشافعي رحمه الله ''. [50]

وذكر النسفي وجها آخر حيث قال: '' [وأرجلكم إلى الكعبين] بالنصب: شامي ونافع وعلى وحفص. والمعنى : فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم على التقديم والتأخير. غيرهم بالجر بالعطف على الرؤوس ؛ لأن الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة ، تغسل بصب الماء عليها فكانت مظنة للإسراف المنهي عنه فعطفت على الممسوح لا

لتمسح ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها. وقيل: ''إلى الكعبين'' فجيء بالغاية إماطة لظن ظان يحسبها ممسوحة لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة .. وعن عطاء: والله ما علمت أن أحدا من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم مسح على القدمين وإنما أمر بغسل هذه الأعضاء ليطهرها من الأوساخ التي تتصل بها لأنها تبدو كثيرا ''. [51]

السبب الحادي عشر: غرابة اللفظ:

قد يكون سبب الإشكال غرابة اللفظ ، مثل:

قوله تعالى: ''وفاكهة وأبا''[52]فإن لفظ الأب قد استشكل على بعض كبار الصحابة. فقد روى أبو عبيد القاسم بن سلام أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى: '' وفاكهة وأبا '' فقال: أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم ؟ [53]

وروى الطبري عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: قال الله :'' وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا '' ، كل هذا قد علمناه ، فما الأب ؟ ثم ضرب بيده ، ثم قال: لعمرك إن هذا لهو التكلف ، واتبعوا ما يتبين لكم في هذا الكتاب ، قال عمر: وما يتبين فعليكم به ، وما لا فدعوه. [54]

وقد حقق الزمخشري قول عمر رضي الله عنه هذا وقال إنه لا يشبه النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته ؛ لأن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل ، وكان التشاغل بشئ من العلم لا يعمل به تكلفا عندهم ، فأراد أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره، وقد علم من فحوي الآية أن الأب بعض ما أنبته الله للإنسان متاعا له أو لأنعامه ، فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله على ما تبين لك ولم يشكل مما عدد من نعمه، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له، واكتف بالمعرفة الجملية إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت ، ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن. [55]

السبب الثاني عشر: اشتراك اللفظ في عدة معان :

وذلك مثل لفظ اليمين في قوله تعالى: ''فراغ عليهم ضربا باليمين''[56] أي فأقبل إبراهيم على أصنام قومه ضاربا لها باليمين من يديه لا بالشمال ، أو ضاربا لها ضربا شديدا بالقوة ؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين، أو ضاربا لها بسبب اليمين التي حلفها ونوه بها القرآن إذ قال: ''وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين''[57]، فكل هذه المعاني جائزة ؛ لأن لفظ اليمين مشترك بينها.

قال الآلوسي :

'' [فراغ عليهم ضربا باليمين] أي باليد اليمين كما روي عن ابن عباس ، وتقييد الضرب باليمين للدلالة على شدته وقوته لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما في الغالب وقوة الآلة تقتضي شدة الفعل وقوته ، أو بالقوة على أن اليمين مجاز عنها. روي أنه عليه السلام كان يجمع يديه في الآلة التي يضربها بها وهي الفأس فيضربها بكمال قوته ، وقيل المراد باليمين الحلف ، وسمي الحلف يمينا إما لأن العادة كانت إذا حلف شخص لآخر جعل يمينه بيمينه فحلف أو لأن الحلف يقوي الكلام ويؤكده ''.[58]

السبب الثالث عشر: الإيجاز والاختصار:

وذلك مثل قوله تعالى: ''فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر''[59]، فظاهر الآية يدل على أن المريض والمسافر يصوم مرتين: مرة في رمضان وأخري في غيره ، وهذا خلاف ما سيقت لأجله الآية لأنها سيقت لبيان الرخصة للمريض والمسافر بأن يفطرا ويقضيا بعد الصحة والعودة من السفر. فأجيب عنه بأن في الكلام حذف وتقدير يدل عليه فحوى الخطاب.

قال الآلوسي: '' فعدة من أيام أخر '' أى فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر من أيام أخر إن أفطر، وحذف الشرط والمضافان للعلم بهما ، أما الشرط فلأن المريض والمسافر داخلان في الخطاب العام فدل على وجوب الصوم عليهما ، فلو لم يتقيد الحكم هنا به لزم أن يصير المرض والسفر اللذان هما من موجبات اليسر شرعا وعقلا موجبين للعسر ، وأما المضاف الأول فلأن الكلام في الصوم ووجوبه ، وأما الثاني فلأنه لما قيل من كان مريضا أو مسافرا فعليه عدة أي أيام معدودة موصوفة بأنها من أيام أخر علم أن المراد معدودة بعدد أيام المرض والسفر واستغنى عن الإضافة'' .[60]

السبب الرابع عشر: بسط الكلام:

مثاله قوله تعالى: ''ليس كمثله شيء''[61]، لأنه لو قيل: ليس مثله شيء لكان أظهر وأوضح للسامع.

فأجاب عنه المفسرون بأنه نفي للمشابهة من كل وجه ويدخل في ذلك نفي أن يكون مثله سبحانه شيء يزاوجه وهو وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها أو المراد ليس مثله تعالى شيء في الشؤون التي من جملتها التدبير البديع السابق فترتبط بما قبلها أيضا ، والمراد من مثله ذاته تعالى فلا فرق بين : ليس كذاته شيء وليس كمثله شيء في المعنى إلا أن الثاني كناية مشتملة على مبالغة وهي أن المماثله منفية عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه وهذا لا يستلزم وجود المثل إذ الفرض كاف في المبالغة وهذا شائع في كلام العرب نحو قولهم مثلك لا يبخل وهم يريدون أنت لا تبخل أي على سبيل الكناية .

قال الزمخشري :

'' قالوا : مثلك لا يبخل ، فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده وعمن هو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه . ونظيره قولك للعربي : العرب لا تخفر الذمم ، كان أبلغ من قولك : أنت لا تخفر ''. [62]

وقد ذكر المفسرون هنا وجوها أخري : فقال البغوي [63] : " مثل صلة ، أي ليس هو كشيء ، فأدخل المثل للتوكيد ، كقوله تعالى : ''فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به'' [64]

وقال ابن عاشور:

'' ومعنى ليس كمثله شيء ، ليس مثله شيء ، فأقحمت كاف التشبيه على مثل وهي بمعناه لأن معنى المثل هو الشبيه ، فتعين أن الكاف مفيدة تأكيدا لمعنى المثل ، وهو من التأكيد اللفظي باللفظ المرادف من غير جنسه ، وحسنه أن المؤكد اسم فأشبه مدخول كاف التشبيه المخالف لمعنى الكاف فلم يكن فيه الثقل. وإذ قد كان المثل واقعا في حيز النفي فالكاف تأكيد لنفيه فكأنه نفي المثل عنه تعالى بجملتين تعليما للمسلمين كيف يبطلون مماثلة الأصنام لله تعالى''[65]

السبب الخامس عشر: نظم الكلام:

وذلك كقوله تعالى: ''الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما''[66]فيرد الإشكال على ظاهر الآية من حيث أن العوج كيف يكون قيما ؟

والجواب عنه كما ذكر ابن جرير الطبري نقلا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: '' أي أنزل الكتاب عدلا قيما ، ولم يجعل له عوجا ''. قال الطبري: '' فأخبر ابن عباس بقوله هذا مع بيانه معنى القيم أن القيم مؤخر بعد قوله : ولم يجعل له عوجا ، ومعناه التقديم بمعنى : أنزل الكتاب على عبده قيما. ثم قال الطبري: ... '' والصواب في ذلك عندنا ما قاله ابن عباس ومن قال بقوله في ذلك؛ لدلالة قوله تعالى: [ولم يجعل له عوجا] فأخبر جل ثنائه أنه أنزل الكتاب الذي أنزله إلى محمد صلي الله عليه وسلم [قيما] مستقيما لا اختلاف فيه ولا تفاوت ، بل بعضه يصدق بعضا ، وبعضه يشهد لبعض ، لا عوج فيه ، ولا ميل عن الحق ''. [67]

والإمام الرازي لا يرى التقديم والتأخير في الآية بل يثبت بالبرهان العقلي أن الترتيب الصحيح هو الذي ذكره الله تعالى حيث يقول: " يجب أن يكون الشيء كاملا في ذاته ثم يكون مكملا لغيره ويجب أن

يكون تاما في ذاته ثم يكون فوق التمام بأن يفيض عليه كمال الغير ، إذا عرفت هذا فنقول في قوله: ’’ ولم يجعل له عوجا ‘‘ إشارة إلى كونه كاملا في ذاته وقوله: ’’ قيما ‘‘ إشارة إلى كونه مكملا لغيره لأن القيم عبارة عن القائم بمصالح الغير ونظيره قوله في أول سورة البقرة في صفة الكتاب :

’’ لا ريب فيه هدى للمتقين ‘‘ فقوله: ’’ لا ريب فيه ‘‘ إشارة إلى كونه في نفسه بالغا في الصحة وعدم الإخلال إلى حيث يجب على العاقل أن لا يرتاب فيه ، وقوله: ’’ هدى للمتقين‘‘ إشارة إلى كونه سببا لهداية الخلق وإكمال حالهم ، فقوله: ’’ ولم يجعل له عوجا ‘‘ قائم مقام قوله: ’’ لا ريب فيه ‘‘ ، وقوله: ’’ قيما ‘‘ قائم مقام قوله: ’’ هدى للمتقين ‘‘ . [68]

ويرى الزمخشري أن الأحسن أن ينتصب ’’ قيما ‘‘ بمضمر ولا يجعل حالا من الكتاب ؛ لأن قوله ’’ و لم يجعل ‘‘ معطوف على أنزل ، فهو داخل في حيز الصلة ، فجاعله حالا من الكتاب فاصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة ، وتقديره: ولم يجعل له عوجا جعله قيما ؛ لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة . فإن قلت : ما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة وفي أحدهما غني عن الآخر ؟ قلت : فائدته التأكيد ، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة لا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح . [69]

وقيل هما حالان متواليان إلا أن الأول جملة والثاني مفرد ؛ لأن قوله: ’’ ولم يجعل ‘‘لم يكن معطوفا على ما قبله بل الواو للحال ، فلا فصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة.[70]

السبب السادس عشر: ما يرجع إلى جهة الكمية:

كالعموم والخصوص : نحو قوله تعالى: ’’فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم‘‘[71]وقوله تعالى: ’’وقاتلوا المشركين كافة‘‘[72]، فلفظ المشركين عام في كل مشرك إلا أنه عام أريد به الخصوص ؛ إذ خصت السنة والنظر منه المرأة والصبي والراهب وغيرهم من أهل الكتاب لجواز أخذ الدية منهم.

أما السنة فما رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله صلي الله عليه وسلم فنهي رسول الله صلي الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان. [73]

وقال ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد:

> ’’أي قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم ، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان ولا الشيخ الكبير ولا من ألقى إليكم السلم وكف يده والرهبان وشبههم‘‘ [74]

وأخرج مالك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعث جيوشا إلى الشام فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان وكان أمير ربع من تلك الأرباع فزعموا أن يزيد قال لأبي بكر إما أن تركب وإما أن أنزل ، فقال أبو بكر ما أنت بنازل وما أنا براكب ، إني احتسب خطاي هذه في سبيل الله ، ثم قال له إنك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له وستجد قوما فحصوا عن أوساط رءوسهم من الشعر فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف ، وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ، ولا صبيا ، ولا كبيرا هرما ، ولا تقطعن شجرا مثمرا ، ولا تخربن عامرا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ، ولا تحرقن نحلا ، ولا تغرقنه ، ولا تغلل ، ولا تجبن. [75]

وأما النظر فإن'' فاعل '' لا يكون في الغالب إلا من اثنين ، كالمقاتلة والمشاتمة والمخاصمة ، والقتال لا يكون في النساء ولا في الصبيان ومن أشبههم ، كالرهبان والزمني والشيوخ والأجراء فلا يقتلون.[76]

السبب السابع عشر: ما يرجع إلى جهة الكيفية:

مثاله قوله تعالى: ''فانكحوا ما طاب لكم من النساء''[77] حيث تردد الأمر فيه بين وجوب النكاح أو استحبابه. فذهب داود الظاهري إلى الأول وقال بالثاني جمهور الفقهاء .

قال الكاساني: '' لا خلاف أن النكاح فرض حالة التوقان ، حتى أن من تاقت نفسه إلى النساء بحيث لا يمكنه الصبر عنهن وهو قادر على المهر والنفقة ولم يتزوج يأثم ، واختلف فيما إذا لم تتق نفسه إلى النساء على التفسير الذي ذكرنا: قال نفاة القياس مثل داود بن علي الأصفهاني وغيره من أصحاب الظواهر أنه فرض عين بمنزلة الصوم والصلاة حتى أن من تركه مع القدرة على المهر والنفقة والوطء يأثم. وقال الجمهور إنه مندوب ومستحب... واحتج أصحاب الظواهر بظاهر قوله تعالى: '' فانكحوا ما طاب لكم من النساء ''، قالوا الأمر المطلق للفرضية والوجوب قطعا إلا أن يقوم الدليل بخلافه...، واحتج الجمهور بما روي عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال: '' من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء ''[78]، أقام الصوم مقام النكاح ، والصوم ليس بواجب فدل أن النكاح ليس بواجب ''.[79] وما يؤيد استحبابه في الآية أنه سبحانه وتعالى علق الأمر بالنكاح بالاستطابة والواجب لا يتعلق بالاستطابة.

السبب الثامن عشر: ما يرجع إلى جهة الزمان:

وذلك كالناسخ والمنسوخ . مثاله قوله تعالى:''كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا علي المتقين''[80] مع آية المواريث:''يوصيكم الله في أولادكم ...'' [81]، فأفادت الأولى أن المأمور به هو الوصية للوالدين والأقربين ، وهي موكولة للعباد بشرط مراعاة العدل ، وأفادت الثانية أن الله قسم الميراث وأعطى كل ذي حق حقه .

فأجاب عنه المفسرون أن الثانية ناسخة لحكم الأولى في حق الوالدين والورثة من الأقارب .

قال البغوي:

''كانت الوصية فريضة في ابتداء الإسلام للوالدين والأقربين على من مات وله مال ثم نسخت بآية الميراث .. فصار وجوبها منسوخا في حق الأقارب الذين يرثون وبقي وجوبها في حق الذين لا يرثون وهو قول ابن عباس وطاووس وقتادة والحسن '' [82]

ثم إن السنة أيضا بينت جهة النسخ في الآية ، فقد روي ابن ماجه عن عمرو بن خارجة أن النبي صلى الله عليه وسلم خطبهم وهو على راحلته قال: إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث فلا يجوز لوارث وصية[83]

وروى الترمذي عن أبي أمامة الباهلي أنه قال سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول في خطبته عام حجة الوداع:

'' إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث ''.[84]قال أبو حيان: ''ولتلقي الأمة إياه بالقبول حتى لحق بالمتواتر وإن كان من الآحاد ؛ لأنهم لا يتلقون بالقبول إلا المثبت الذي صحت روايته ''. [85]

السبب التاسع عشر: ما يرجع إلى جهة المكان:

نحو قوله تعالى: ''وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها''[86]فإن من لا يعرف عادتهم في الجاهلية يتعذر عليه معرفة تفسير هذه الآية ؛ حيث إنهم كانوا إذا أحرموا نقبوا البيوت من ظهورها لدخولهم وخروجهم ، فبين الله لهم أن هذا العمل ليس من البر في شيء.

روي الشيخان عن البراء بن عازب قال نزلت هذه الآية فينا كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه عير بذلك فنزلت . [87]

ونقل الثعالبي عن البراء والزهري وقتادة: سببها أن الأنصار كانوا إذا حجوا أو اعتمروا يلتزمون تشرعا ألا يحول بينهم وبين السماء حائل ، فكانوا يتسنمون ظهور بيوتهم على الجدران ، وقيل كانوا يجعلون في ظهور بيوتهم فتوحا يدخلون منها ولا يدخلون من الأبواب. [88]، وقيل كان الناس في الجاهلية وفي أوائل الإسلام إذا أحرم الرجل منهم لم يدخل حائطا ولا دارا ولا فسطاطا من بابه ، فإن كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلما يصعد منه ، وإن كان من أهل الوبر دخل وخرج من خلف الخباء ولا يدخل ولا يخرج من الباب ويرون ذلك برا. [89]

السبب العشرون: التقديم والتأخير:

مثاله قوله تعالى: ''إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله''[90]مع قوله تعالى: ''قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به..'' [91]وقوله تعالى:

''إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغيرالله به..'' [92]ففي الأولى قدم الجار والمجرور " به " ، وأخره في الباقيات.

والجواب أن هذا التقديم والتأخير جار على مقتضى البلاغة ومراعاة السياق وجودة النظم الكريم ، ذلك أن الضمير في " به " في آية سورة البقرة يعود علي الأنعام التي يهل بها لغير الله ، وهذه الأنعام من جملة النعم والمباحات التي عددها الله تعالى فيما سبق من الآيات ، فناسب تقديم الضمير المجرور في هذا الموضع ، ومن عادة العرب تقديم ما قصد تأكيده أو تشريفه. وقدم الإهلال في الباقيات لأنه هو المقصود بالاستنكار.

قال الآلوسي في تفسير آية البقرة: '' وإنما قدم " به " هنا لأنه أمس بالفعل وأخر في مواضع أخر نظرا للمقصود فيها من ذكر المستنكر وهو الذبح لغير الله عز شأنه '' [93]

السبب الواحد والعشرون: الزيادة والنقصان:

وذلك كقوله تعالى: ''فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم''[94]مع قوله تعالى: ''فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم''[95]، حيث زاد في الثانية كلمة '' منهم ''.

والجواب عن ذلك: أن أول القصة في الأعراف مبني على التخصيص حيث إن الله لما ذكر منكرات بني إسرائيل من اتخاذ العجل ، وطلب رؤية الله ، عقبه بقوله: " ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " ، فذكر أن منهم من يفعل ذلك ، ثم عد صنوف إنعامه عليهم وأوامره ، ثم قال: " فبدل الذين ظلموا منهم .." فأتى بحرف " من " التي هي للتخصيص ، ليبين أنهم لم يكونوا سواء في هذا الفعل القبيح. أما في سورة البقرة فإن السياق بأكمله منصب على ذكر المخالفات فلم يكن هناك حاجة إلى التخصيص.

قال الرازي: '' ما الفائدة في زيادة كلمة " منهم " في الأعراف ؟ الجواب : سبب زيادة هذه اللفظة في سورة الأعراف أن أول القصة ههنا مبني على التخصيص بلفظ " من " لأنه تعالى قال " ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " فذكر أن منهم من يفعل ذلك ثم عدد صنوف إنعامه عليهم وأوامره لهم ، فلما انتهت القصة قال الله تعالى : " فبدل الذين ظلموا منهم " فذكر لفظة " منهم " في

آخر القصة كما ذكرها في أول القصة ليكون آخر الكلام مطابقا لأوله فيكون الظالمون من قوم موسى بإزاء الهادين منهم ، فهناك ذكر أمة عادلة وههنا ذكر أمة حابرة وكلتاهما من قوم موسى ، فهذا هو السبب في ذكر هذه الكلمة في سورة الأعراف . وأما في سورة البقرة فإنه لم يذكر في الآيات التي قبل قوله: " فبدل الذين ظلموا .." تمييزا وتخصيصا حتى يلزم في آخر القصة ذكر ذلك التخصيص فظهر الفرق ''. [96]

السبب الثاني والعشرون: إبدال لفظ بآخر:

نحو قوله تعالى: ''والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا''[97]، وقال في آية في نفس القصة: ''ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا''[98]، حيث أن الآية الأولى تدل بظاهرها على إحياء مريم والثانية تدل على إحياء عيسى عليه السلام ، والمعلوم أن المقصود هو إحياء عيسى عليه السلام وليس إحيائها. فأجاب عنه المفسرون بعدة أجوبة:

قال الزمخشري:

'' فإن قلت : نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه ، قال تعالى: " فإذا سويته ونفخت فيه من روحي " أي أحييته. وإذا ثبت ذلك كان قوله: " فنفخنا فيها من روحنا " ظاهر الإشكال ؛ لأنه يدل على إحياء مريم. قلت: معناه نفخنا الروح في عيسي فيها ، أي أحييناه في جوفها. ونحو ذلك أن يقول الزمار: نفخت في بيت فلان ، أي نفخت في المزمار في بيته. ويجوز أن يراد : وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام ؛ لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها ''. [99]

وقال الآلوسي:

'' هذا الإحياء لعيسى عليه السلام وهو لكونه في بطنها صح أن يقال: نفخنا فيها فإن ما يكون فيما في الشيء يكون فيه فلا يلزم أن يكون المعنى أحييناها وليس بمراد'' [100]

السبب الثالث والعشرون: اختلاف الجمع والإفراد:

مثاله قوله تعالى: ''رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا''[101]، قوله تعالى:''رب المشرقين ورب المغربين''[102]مع قوله تعالى: ''فلا أقسم برب المشارق والمغارب''[103]، فأفرد مرة ، وثني أخري ، وجمع ثالثة.

فأجيب عنه بأنه في المزمل أراد مشرق الشمس ومغربها بشكل عام ، فهناك جهة تشرق منها الشمس ، وجهة مقابلة تغيب منها سواء كان صيفا أو شتاء ، وفي سورة الرحمن أراد مشرقي الصيف والشتاء

ومغربيها ، وفي المعارج أراد المشارق والمغارب التي تمر بها الشمس أثناء تنقلها بين المدارين طوال السنة ، فللشمس مشارق بعدد أيام السنة ، إذ أنها تشرق كل يوم من مكان من جهة الشرق ، وتغرب من مكان من جهة الغرب.

قال ابن عاشور:

'' والمشرق جهة شروق الشمس والمغرب جهة غروبها وتثنية المشرقين والمغربين باعتبار أن الشمس تطلع في فصلي الشتاء والربيع من سمت وفي فصلي الصيف والخريف من سمت آخر ، وبمراعاة وقت الطول ووقت القصر وكذلك غروبها وهي فيما بين هذين المشرقين والمغربين ينتقل طلوعها وغروبها في درجات متقاربة فقد يعتبر ذلك فيقال: المشارق والمغارب كما في قوله تعالى: (فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون) في سورة المعارج ''. [104]

وقال في تفسير سورة المعارج:

'' وجمع (المشارق والمغارب) باعتبار تعدد مطالع الشمس ومغاربها في فصول السنة فإن ذلك مظهر عجيب من مظاهر القدرة الإلهية والحكمة الربانية لدلالته من عظيم صنع الله..''[105]

السبب الرابع والعشرون: تذكير الشيئ تارة وتأنيثه أخرى:

نحو قوه تعالى: ''تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر''[106] مع قوله تعالى:''كأنهم أعجازنخل خاوية''[107] حيث وصف النخل بالمذكر في الأولى وبالمؤنث في الثانية.

والجواب عن ذلك أن في الأولى حمل على اللفظ وفي الثانية حمل على المعنى من حيث أنه في معنى الجماعات.

قال الزمخشري في تفسير سورة القمر: '' وذكر صفة نخل على اللفظ ، ولو حملها على المعنى لأنث كما قال: (أعجاز نخل خاوية) '' [108]

السبب الخامس والعشرون: مخالفة الآية للمشهور من قواعد النحو والعربية:

وذلك كقوله تعالى: ''لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر''[109] حيث نصب '' والمقيمين الصلاة '' بين المرفوعات.

وأجيب عنه بأنه نصب على المدح ؛ لأن من عادة العرب أنهم عندما يصفون فيمدحون فيركزون على صفة من الصفات ينصبوها علي المدح.

قال ابن عاشور[110]:

'' وعطف (المقيمين) بالنصب ثبت في المصحف الإمام ، وقرأه المسلمون في الأقطار دون نكير ؛ فعلمنا أنه طريقة عربية في عطف الأسماء الدالة على صفات محامد علي أمثالها ، فيجوز في بعض المعطوفات النصب على التخصيص بالمدح ، والرفع على الاستئناف للاهتمام ، كما فعلوا ذلك في النعوت المتتابعة ، سواء كانت بدون عطف أم بعطف ، كقوله تعالى: (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتي الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس..''). [111]

السبب السادس والعشرون: التعارض بين الآية والحديث ظاهرا:

مثاله قوله تعالى:''يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم''[112]فإن ظاهر الآية يتعارض مع ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول:'' إن الناس إذا رأوا ظالما فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه ''[113]

والجواب عن ذلك ماروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الطرق الأخرى للرواية، حيث روى أبو داود وأحمد أنه قال أبو بكر رضي الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه : '' يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب ''. [114]

ثم وجدنا رواية أبي ثعلبة الخشني تبين لنا موضع هذه الآية ، فقد سأله أبو أمية وقال: '' يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية (عليكم أنفسكم) ؟ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرا سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك– يعني بنفسك — ودع عنك العوام فإن من ورائكم أيام الصبر ، الصبر فيه مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله '' [115]

فعقلنا بهذا الحديث أن معنى قول أبي بكر أن الناس يضعون هذه الآية في غير موضعها ، أنه يريد بها سيعملونها في غير زمنها ، وأن زمنها الذي يستعمل فيه هو الزمان الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن ما قبله من الأزمنة فإن فرض الله فيه على عباده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فهذه هي أهم أسباب وقوع الإشكال في القرآن الكريم ومعظمها ترجع إلى التفنن في أساليب الكلام كما قال ابن قتيبة: '' وللعرب المجازات في الكلام ، ومعناها: طرق القول ومآخذه ، ففيها الاستعارة ، والتمثيل ، والقلب ، والتقديم ، والتأخير ، والحذف ، والتكرار ، والإخفاء ، والإظهار ، والتعريض ، والإفصاح ، والكناية ، والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الإثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص ، مع أشياء كثيرة تجدها في أبواب المجاز. وبكل هذه المذاهب نزل القرآن الكريم ''.[116]

ثم إن العلماء وضعوا منهجا علميا واضحا يعمل به عند تعارض الآيات مثل:

1- الجمع بين مدلولات النصوص والتوفيق بينها ما أمكن ذلك.

2- اللجوء إلى الترجيح عند تعذر الجمع ، فيقدم الراجح للعمل به.

وقد ذكروا عند التعارض مرجحات أيضا مثل:

1- تقديم المدني على المكي ، فيقدم الحكم بالآية المدنية على الآية المكية في التخصيص والتقييد ؛ إذ كان غالب الآيات المكية نزولها قبل الهجرة.

2- أن يكون أحد الحكمين على غالب أحوال مكة ، والآخر على غالب أحوال أهل المدينة ، فيقدم الحكم بالخبر الذي فيه أحوال أهل المدينة.

3- أن يكون أحد الظاهرين مستقلا بحكمه والآخر مقتضيا لفظا يزاد عليه ، فيقدم المستقل بنفسه عند المعارضة والترتيب.

4- أن يكون كل واحد من العمومين محمولا على ما قصد به في الظاهر عند الاجتهاد ، فيقدم ذلك على تخصيص كل واحد منهما من المقصود بالآخر.

5- أن يكون تخصيص أحد الاستعمالين على لفظ تعلق بمعناه والآخر باسمه

6- ترجيح ما يعلم بالخطاب ضرورة على ما يعلم منه ظاهرا.[117]

فعلى هذا لا يجوز القول بوقوع التناقض أو التعارض في القرآن الكريم ما دام قد أحكمت الأمور في ضوء القواعد والأصول، والله أعلم.

الهوامش والمصادر

[1]– الأنعام: 23

[2]– النساء: 42

[3]– انظر: البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، الجامع الصحيح ، كتاب التفسير 1814/4 ، ط: دار ابن كثير، اليمامة – بيروت – الطبعة الثالثة 1407 هـ

[4]– انظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن 75/1 ، ط: مؤسسة الرسالة 1420 هـ

[5]– انظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 21/10 ، دارإحياء التراث العربي بيروت 1405 هـ

[6]– آل عمران: 59

[7]– الحجر: 26 ، 28 ، 33

[8]– الصافات: 11

[9]– الرحمن: 14

[10]– الشوكاني، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية 176/4

[11]– الصافات: 24

[12]– الأعراف: 6

[13]– الحجر: 92 ، 93

[14]– الرحمن: 39

[15]– البقرة: 174

[16]– الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 417/14

[17]– الأنفال: 17

[18]– الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل 349/2

[19]–الرازي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسين الرازي الملقب بفخر الدين، مفاتيح الغيب 380/7

[20]– الحج: 2

[21]– الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل 272/4

[22]– ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير 139/17 مؤسسة التاريخ العربي بيروت 1420 هـ

[23]– الرعد:

[24]– الأنفال: 2

[25]– الرازي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسين الرازي الملقب بفخر الدين، مفاتيح الغيب 179/9

[26]– البقرة: 29

[27]– النازعات:

[28]– البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، الجامع الصحيح 23/15

[29]– السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، بحر العلوم 34/1

[30]– المعارج: 4

[31]– السجدة: 5

[32]– الفرقان: 26

[33]– ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية، المحرر الوجيز 279/5

[34]– السجدة: 20

[35]– سبأ:

[36]– أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النحوي، البحر المحيط 216/9

[37]– الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 13/16

[38]– البقرة: 126

[39]– إبراهيم: 35

[40]– الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل 3/

[41]– الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 386/9

[42]– النساء: 23

[43]– المؤمنون: 5–6

[44]– حديث ذكره الكاساني وغيره من الفقهاء وأصله ثابت في الصحيح ، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أم حبيبة قالت: قلت: يا رسول الله ، هل في بنت أبي سفيان ؟ قال: فأفعل ما ذا ؟ قلت: تنكح ، قال: أتحبين ؟ قلت:

لست لك بمخلية وأحب من شركني فيك أختي ، قال: إنها لا تحل لي ، قلت: بلغني أنك تخطب ، قال: ابنة أم سلمة ؟ قلت نعم ، قال: لو لم تكن ربيبتي ما حلت لي ، أرضعتني وأباها ثويبة ، فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن. (صحيح البخاري 1964/5) ، راجع: الكاساني، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني علاء الدين، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع 431/5

[45]– المرجع السابق 431/5

[46]– إمام دار الهجرة، مالك بن أنس، مؤطأ مالك 773/3 مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان 1425 هـ

[47]– الكاساني، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني علاء الدين، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع 425/5

[48]– المائدة:

[49]– الإنسان: 21

[50]– ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم 53/3 دار طيبة للنشر والتوزيع (الثاني) 1420 هـ

[51]– النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل 27/1

[52]عبس: 31

[53]– أبو عبيد، القاسم بن سلام الهروي، فضائل القرآن 253/2 دار ابن كثير دمشق 1420هـ

[54]– الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن 231/24

[55]– الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل 236/7

[56]– الصافات: 93

[57]– الأنبياء: 57

[58]– الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 187/17

[59]– البقرة: 184

[60]– الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 124/2

[61]– الشورى: 11

[62]– الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل 181/6 . راجع كذلك: العمادي، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفي، إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم 73/6

[63]– البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل 186/7

[64]– البقرة: 137

[65]– ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير 91/13

[66]– الكهف: 1-2

[67]– الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن (بتصرف يسير) 591-592/17

[68]– الرازي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسين الرازي الملقب بفخر الدين، مفاتيح الغيب 153/10

[69]– الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل 494/3

[70]– أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النحوي، البحر المحيط 413/7

[71]– التوبة: 5

[72]– التوبة: 36

[73]– البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، الجامع الصحيح 1098/3 ، مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري، الجامع الصحيح 144/5

[74]– الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن 562/3-563

[75]– إمام دار الهجرة، مالك بن أنس، مؤطأ مالك 322/3

[76]– القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 348/2

[77]– النساء: 3

[78]– البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، الجامع الصحيح 496/15

[79]– الكاساني، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني علاء الدين، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (بتصرف يسير) 310-309/5

[80]– البقرة: 180

[81]– النساء: 11-12

[82]– البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل 192/1

[83]– ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني 184/8

[84]– الترمذي، أبو عيسي محمد بن عيسي بن سورة، سنن الترمذي 491/7

[85]– أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النحوي، البحر المحيط 175/2

[86]– البقرة: 189

[87]– البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، الجامع الصحيح 317/6 ، مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري، الجامع الصحيح 321/14

[88]– الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، الجواهر الحسان في تفسير القرآن 109/1

[89]– الخازن، أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر، لباب التأويل في معاني التنزيل 164/1

[90]– البقرة: 173

[91]– الأنعام: 145

[92]– النحل: 115

[93]– الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 99/2

[94]– البقرة: 59

[95]– الأعراف: 162

[96]– الرازي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسين الرازي الملقب بفخر الدين، مفاتيح الغيب 124/2

[97]– الأنبياء: 91

[98]– التحريم:12

[99]– الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل 256/4

[100]– الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 459/12

[101]– المزمل: 9

[102]– الرحمن: 17

[103]– المعارج: 40

[104]– ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير 4249/1

[105]– المرجع السابق 4566/1

[106]– القمر: 20

[107]– الحاقة: 7

[108]– الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل 453/6

[109]– النساء: 162

[110]– ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير 87/4

[111]– البقرة: 177

[112]– المائدة: 105

[113]– الترمذي، أبو عيسي محمد بن عيسي بن سورة، سنن الترمذي 320/10

[114]– أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو السجستاني، سنن 214/4 ، أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، مسند 5/1

[115]– أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو السجستاني، سنن 215/4

[116]– ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تأويل مشكل القرآن 22 دار الكتب العلمية – بيروت – 2002 م

[117]– الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، البرهان في علوم القرآن 48/2-50 (بتصرف) دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه 1376 هـ